مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية م ١١، ص ص ٣ - ٥٤ (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م)

نجـــد بـــين معـــركتـــين
(١٣٠٨ - ١٣١٨هـ/ ١٨٩١ - ١٩٠١م)

محمد بن ثنيان الثنيان

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبدالعزيز - جدة

المستخلص. المعركتان لمقصودتان هما ، معركتا المليداء والصرّيف . مضت بين هاتين المعركتين فترة تجاوز العقد من الزمن . هذه الفترة وتاريخها ، يشوبها شيء من الغموض ، والحساسية ، ولذا فلم يتطرق إليها الكثير من الباحثين أو الدارسين . حسب اطلاعي ، وطبقا لما هو متوافر من معلومات، فليس هناك بحث مستقل يركّز على هذه الحقبة الزمنية ، والتي تسبق مباشرة بزوغ فجر تاريخ المملكة العربية السعودية . ولاشك أن جميع مراحل تاريخنا ، وفتراته ، الحالك منها والمضيء تعدّ بالنسبة إلينا هامة ، فلكل فترة ظروفها التاريخية الخاصة بها . والتاريخ كله عظة واعتبار.

معركة المليداء كانت حاسمة في نتائجها ، فقد هزم القصيم ، وفقد استقلاله الذي كان يتمتع به ، وسيطر الأمير محمد بن عبدالله بن رشيد على نجد قاطبة ، وطويت صفحة الدولة السعودية الثانية عندما اضطر آخر أئمتها عبدالرحمن الفيصل إلى مغادرة نجد، بادئًا مرحلة الجلاء التي دامت كل هذه الفترة التي فصلت بين هاتين المعركتين وهي فترة تنوف على العقد من الزمن .

به، وتكالبوا عليه، وبدت الأمور بوحدة القصيم، أو اتحاده هذا، وكأنها تصب في مصلحة هذا الإمام ودولته، وغدا القصيم وكأنه سيصبح سدًا منيعًا يفصل بين عدو الشمال المتنمّر الأمير محمد بن عبدالله بن رشيد، أمير جبل شمر، وبين قلب السلطة المركزية المتضعضع والمتداعي في الجنوب. وكان من الطبيعي جدًا أن يتم حلف متين بين الإمام عبدالرحمن، وبين القصيم المتحد، ضد العدو المشترك ابن رشيد.[١٦]

ما بعد الهزيمة

لكن تأتي المليداء لتهدم كل شيء، وتفقد القصيم استقلاله، وتلقي بزعمائه وأمرائه إما تحت الثرى، أو خارج نجد، حيث خرّ الأمير زامل وأبناؤه صرعى في هذا الوغي، وأسر الأمير حسن بعد المعركة وقد أثخنته الجراح. ومن ناحية أخرى فقد أجهزت هذه المعركة الضروس، ونتائجها المريرة، على البقية الباقية من ملك الإمام عبدالرحمن بن فيصل، وأجبرته على الجلاء عن نجد، مع من تبقى على قيد الحياة من حلفائه أمراء القصيم. وبهذا انضوى إقليما العارض والقصيم قسرًا تحت حكم أمير الجبل محمد بن عبدالله بن رشيد[١٧]، كما تعرّض هذان الإقليمان للتنكيل والعقاب من قبل هذا الأمير المنتصر، حيث هُدمَ سور الرياض، وسُوِّيَ بالأرض[١٨] وهدّت بعض قصورها، وقطعت كثير من نخيلها، وأحرقت. أما القصيم فقد ضيق عليها، وطورد البقية الناجية من أمرائها، وقبض على من لم يتمكن من الفرار، وأودع السجن، وصودرت أموال، وخربت أملاك، وعاثت معاول الهدم، تخرّب وتقضّ كثيرًا من بيوت القصيم، وقصورها.

يقول إبراهيم العبد المحسن: «لما تواقف هو (ابن رشيد) وأهل القصيم وبان له الظفر بثّ جنوده لينهبوا الأموال ويقتلوا الرجال فجاءوه بالأموال قد نهبوها والأدباش من القرى وغيرها وأخرجوها من (معاطنها) وحشروها لديه فبكى وقال أريد اعناق الرجال وتأتوني بالحمر والبقر والغنم»[١٩].

هذا طرف من قصة المأساة التي خيّمت بظلالها الكئيبة على القصيم كله بعد نكبة

المليداء . لكن المستهدف بالانتقام والعقاب بالدرجة الأولى ، كانتا بريدة وعنيزة ، تلكما المدينتين اللتين تعاهدتا وتبايعتا على دحر ابن رشيد وإقصائه عن نجد ، وإنهاء حكمه .

الأمير محمد بن رشيد ، بالرغم من انتصاره على أهل القصيم في معركة المليداء ، وتحوّل بريدة وعنيزه إلى مدينتين مغلوبتين على أمرهما ، فإنه قد أمّر على بريدة حسين بن محمد بن جراد الناصري التميمي ، وهو ليس برشيدي ولا شمري ، ولكنه كان واحدًا من الجبابرة العتاة [٢٠] . أما عنيزة ، فإنه ، مداراة أو سياسة ، لم يكلْ أمرها إلى أمير أجنبي عنها ، بل أمّر عليها ، كما يقول البسّام ، واحدًا من أهلها ، وبرضاهم ، وهو عبدالله الصالح آل يحيى.[٢١] لكن هذا لا يعني أن هذه المدينة قد أفلتت من العقاب . لا، فهاتان المدينتان الباسلتان ؛ بريدة وعنيزة ، كانتا في الحرب سواء ، وأضحتا في الهمّ سواء .

بعد مقتل عميدهم الأمير زامل العبدالله السليم ، وأبنائه وآخرين منهم ، على ساحة الوغى في المليداء ، لم يتعرض ابن رشيد ، كما يقول الذكير ، لبقية آل سليم ، أمراء عنيزة، حيث بقوا أحرارًا يديرون أملاكهم[٢٢] وبيوتهم ، على أن بعض كبار هذه الأسرة كعبدالعزيز العبدالله وصالح الزامل ، فضّلوا ، كما يقول الذكير أيضًا ، اللجوء إلى الكويت[٢٣]. لكن عبدالعزيز العبدالله ، وكان شابًا إذ ذاك ، سئم الغربة وحنّ إلى نجد ، وإلى موطنه عنيزة ، فقرر العودة ، لكنه رأى أن من الأحوط والآمن ، وقد فرّ جاليًا من قبل ، أن يستأذن الأمير ابن رشيد في ذلك - وارتكب بذلك ، نفس الخطأ الذي ارتكبه قبله أمير بريدة ، كما سيأتي ، فأحسن الظن كثيرًا بعدوه - فغادر الكويت دون علم كبيرهم صالح الزامل السليم ، واتجه إلى حائل ، وخلاصة القصة ، كما يرويها الذكير أن عبدالعزيز وصل حائل ، وأكرمه الأمير محمد بن رشيد لكنه «ساءه ما رآه فيه من النجابة والوقار على صغر سنه» وأقام عبدالعزيز في حائل قدر أربعة أيام، ثم جاءه رجل ونصحه سرًا ، أن ينجو بنفسه ، قبل أن يُقْبَضَ عليه ، فدبّر أمره وهرب ليلاً ، ولم يصبح إلا وهو في مكان بعيد عن حائل ، ثم واصل السير حتى بلغ الكويت . ويختم الذكير روايته هذه قائلاً «بأنه اخبرهم بالأمر الذي كانوا هم منتظرين وقوعه لولا لطف الله ،

وأن صالح الزامل قد عنّفه ولامه على تصرفه هذا، شفقة وخوفًا عليه، وحمدوا الله على نجاته، وعودته سالمًا»[٢٤].

هذه الحادثة توضح أن سياسة اللين الظاهرة هذه ما هي إلا شعار، تكمن خلفه سياسة القوة والعنف التي مابرح، ابن رشيد، وأن أخذ بناصيتها تجاه عنيزة، حيث تذكر المصادر التاريخية أنه جهزّ قوة تحت قيادة أحد قواده الأشداء وهو حسين بن جراد، متذرعًا ببعض الأسباب الواهية، وأرسلها إلى عنيزة. وبعد أن وصلت هذه القوة اتضح جليًا غرضها الحقيقي، وهو إلقاء القبض على البقية الباقية من رجال أسرة الإمارة؛ آل سليم، وترحيلهم إلى حائل، وإبقائهم أسرى هناك[٢٥]. وممن اعتقل ورحّل الأخوة الثلاثة، عبدالله ومحمد وعبدالرحمن، أبناء الأمير زامل العبدالله، وكذلك الأخوان، إبراهيم وسليمان، أبناء حمد البراهيم السليم. كذلك قبضت هذه القوة على علي السليم وأبنائه، ولكنهم تمكنّوا من الإفلات والنجاة بأنفسهم، ويقول الذكير بأن علي السليم كان شيخًا طاعنًا في السن وكان عمره ينوف على الثمانين عامًا، وأنه بالرغم من ذلك، انهزم هاربًا «على رجليه فزبن[٢٦] عين ابن فهيد بالأسياح، وتوفى فيها بعد أيام قليلة، وقد فر الآخرون الذين سلموا من الأسر.[٢٧]

ولم يكتف حسين ابن جراد وقوته، بالأسر والاعتقال فقط بل تعداه إلى الهدم والتخريب، حيث هدم جميع قصور، وبيوت آل سليم كما يذكر ذلك الذكير، واستولى على أملاكهم أي مزارعهم. ولم يتبق في عنيزة من آل سليم طبقًا لرواية الذكير، إلا الصغار الذين لا يستطيعون الهرب، والنساء، والذين أنقذوا بعد ذلك حيث يواصل قائلاً، بأن آل سليم، الجالين في الكويت، أرسلوا مقبل بن عيسى - مولى التاجر الكبير عبدالرحمن الذكير - ومعه بعض الرجال، وكلفوه بإحضار بعض صغار آل سليم، والنساء إلى الكويت. ونجح في مهمته هذه، والتي لعلها تمت خلسة، وبسرية تامة، حيث يقول الذكير بأنه عندما وصل إلى مشارف عنيزة «ترك ركائبه وخوياه خارج البلد»[٢٨].

ولم تقتصر المطاردة والملاحقة في عنيزة فيما يبدو على أمراء المدينة فقط، بل لحقت الكثير من الأعيان والوجهاء ومن هؤلاء مثلاً عبدالعزيز الدخيل بن صالح والذي لم يكن من آل سليم، ولكنه اضطر للجلاء إلى الكويت.[٢٩] ومثله الكثير، حيث تذكر المصادر التاريخية أن علي الصقيري وأخوه قد أقبلا من الشام - حيث كانا جاليين بها - على رأس شوكة حرب، من أهل عنيزة للالتحاق بالسلطان عبدالعزيز آل سعود، بعد خروجه إلى نجد، وذلك بعد أن شحذ هممهم الشاعر محمد العبدالله العوني بقصيدته الحماسية[٣٠].

أحداث عنيزة العصيبة هذه، شاطرتها فيها جارتها ورفيقتها على الدرب مدينة بريدة. بعد فاجعة المليداء، والحزن قد خيّم على القصيم بكامله، نزل العدو المنتصر، في العكيرشة على بئر الرفيعة وهي من أملاك خصمه المهزوم الأمير حسن بن مهنا، أمير بريدة وكان، بالطبع، حانقًا ومغتاظًا من هذه المدينة، وما قامت به ضده مع بقية بلدان القصيم، فأقسم، كما يقول إبراهيم العبد المحسن، بالطلاق أن يبطش بها، وبأهلها، وأن يجوس خلالها، وأن ينزل بهم العقاب الصارم[٣١]. ولولا وساطة الشيخ والعالم الجليل محمد بن عبدالله بن سليم، لربما برّ بقسمه، وارتكب معصية وعيدة. خرج هذا الشيخ إلى الأمير محمد بن رشيد، ودخل عليه في مجلسه، وكان غاضبًا مُحْتَدّاً، فاستقبله استقبالاً لا يليق بجلال قدر العلماء، ولا بتسامح، وعفو أمير منتصر. عنّفه، وهدّده، لكن الشيخ صبر، واحتسب، وذكّر الأمير الغاضب بآيات الله سبحانه وتعالى الحاثّة على العفو والصفح والتسامح وكظم الغيظ، وتلاها على مسامعه، فظفر بمبتغاه.

بكى الأمير محمد بن رشيد، وخفّت حدّة غضبه، واستوى قائمًا، وأعلن عفوه عن المدينة، وأهلها، وأكرم الشيخ، وكساه، وأعاده راشدًا إلى أهله، على صهوة جواده الخاص[٣٢]. وحاول كفّ جنوده عن كل تخريب وفساد. فذكّره، بعض أشرار الناس بأنه قد حنث بيمينه فما كان منه إلا أن قال لجنده: «أدخلوا من أي باب شئتم وأخرجوا فليس هناك معارض أما الفساد فلا ولا رخصة لكم بذلك»[٣٣].

لكن الأمور لم تكن كلها كذلك . وما قيل هناك في عنيزة عن سياسة اللين الظاهرة، يصح قوله هنا ، عن سياسة هذا العفو والتسامح البادي . ولّى ابن رشيد على إمارة بريدة، حسين بن جراد والذي يقول عنه إبراهيم العبد المحسن بأنه ذو سطوة وجبروت[٣٤] . وقد ذاق الأهالي منه في هذه المدينة الأمرّين ، وعانوا كثيراً من صنوف القمع والاضطهاد ، حيث اعتقل ، وسجن ، وعذّب الكثير من الناس ، بل إنه كما يروي هذا المؤرخ ، قد عذّب أحد الناس حتى الموت[٣٥] . ونتيجة لذلك ، بالإضافة إلى تهديد ووعيد الأمير محمد بن رشيد ، السابق الذكر ، فقد ترك الكثير من سكان بريدة ، مدينتهم ، وفروا إلى أماكن بعيدة اتقاءً وتجنبًا لهذه المخاطر[٣٦] .

أما فيما يتعلق بأمراء بريدة ؛ آل مهنا ، فكبيرهم الأمير حسن وأولاده ، اعتقلوا ، وسجنوا في حائل . ويروي الذكير قصة أسرهم المؤثرة هذه فيقول بأن الأمير محمد بن رشيد ، عندما كان معسكراً على الرفيعة ، بالقرب من بريدة جهزّ سريّة بقيادة سالم السبهان ، وأرسلها إلى عنيزة ، والتي كانوا قد لجأوا إليها ، للقبض عليهم ومن معهم ، فجاءوا بهم إليه ، فأخذ ما معهم من الخيل والجيش والسلاح ، وسيّرهم إلى حائل ، حيث حبسهم هناك ولم يكتف ابن رشيد بذلك ، بل تتّبع ، كما يقول الذكير ، كل ما كان لآل مهنا أو أتباعهم فأخذه[٣٧] . أما أخو أمير بريدة إبراهيم بن مهنا ، فقد قتله ، ابن رشيد ، صبراً ، بعد ذلك في وقعة حريملاء . الأمير حسن قضى نحبه في السجن ، أما بقية الأسرى فقد تمكنوا ، بعد سنوات ، من الهرب من السجن ، والفرار إلى الكويت . يقول الذكير : «.. تمكّن أولاد آل أبا الخيل المحبوسون عند ابن رشيد من الهرب ، وكان حسن المهنا قد توفي وهو بالحبس وعمل الأولاد الأسباب ونقبوا جدار السجن وخرجوا فطلبهم ابن رشيد فلم يجد لهم أثراً لأنهم قد كنّوا في بعض الجبال حتى خفّ الطلب فوصلوا إلى الكويت»[٣٨] .

أما آل مهنا ، الذين سلموا القتل والأسر ، وهم ، كما يعددهم الذكير ، عبدالله بن مهنا وأبناؤه محمد وإبراهيم ، وربما آخرون ، فقد فروّا ناجين بأنفسهم إلى الكويت[٣٩] .

والكويت ، وإن كان أكثر الجالين من القصيم . قد قصدها ، إلا أنها لم تكن الملجأ الوحيد لهم ، حيث جلا بعض أعيان القصيم ، وبالذات من عنيزة وبريدة ، إلى بلدان الخليج العربي الأخرى كالبحرين ، وكذلك إلى العراق والشام(٤٠) . وهذه البلدان معتادة ومألوفة من قبل أهل القصيم بل من أهل نجد عامة ، حيث وصل إليها تجارهم المعروفون (بعقيل) أو (بالعقيلات) منذ القدم وكذلك التجار الآخرون . بل إن تجار القصيم ونجد كلها في الماضي ، عرفوا الهند ، وتاجروا معها ، وإلى الأمس القريب ، ولهم علاقات تجارية تربطهم بها . ويروي الرحالة الإنجليزي تشارلز داوتي (Charles Doughty) أن أهل القصيم ، وبالذات أهل عنيزة ، قد وصلوا في تجارتهم إلى أماكن لا يتصورها المرء مثل جزيرة موريشوس (Mauritius)(٤١) . وعندما حلّت هذه الكوارث بنجد ، مثل المليداء ، والصريّف، كما سيأتي ، وعمّ حكم آل رشيد المنطقة كلها ، كان من الطبيعي أن يلجأ كثير من الناس إلى هذه البلدان المعروفة لديهم والقريبة والمجاورة لهم . حيث رحل كثير من كبار القوم تحت هذه الضغوط السياسية ، وأنفة من العيش تحت حكم عدوهم . وقد شهدت هذه البلدان ، أو بالأحرى هذه المهاجر ، فئة جديدة ، لم تعتدها من قبل ، ألا وهم الأمراء والحكّام ، وفي مقدمتهم آل سعود ، وعلى رأسهم الإمام عبدالرحمن وابنه عبدالعزيز، وكذلك أسر القصيم الحاكمة كآل سليم في الكويت وآل مهنا والذين منهم الأمير صالح بن حسن آل مهنا ، الذي جلا بعد وقعة الصريّف ، أو الطرفية ، إلى الشام ، والذي أثارت حميّته ، ونخوته ، فيما بعد، قصيدة (الخلوج)(٤٢) للشاعر محمد العبدالله العوني ، فكوّن فرقة كبيرة من المحاربين ، من أهل القصيم ، وذهب ، عن طريق الكويت، فاجتمع آل مهنا ، وآل سليم واتجهوا إلى نجد للانضمام إلى الملك عبدالعزيز لاستعادة نجد(٤٣) .

الحياة بعد المليداء

فقد القصيم استقلاله ، الذي دام فترة تربو على الربع قرن ، ودخل تحت نفوذ وحكم الأمير محمد بن رشيد الذي أصبح باستيلائه على هذه المقاطعة الهامة ، يحكم كل نجد ، إذ أصبح حاكمًا لمنطقة شاسعة تمتد من حدود الشام شمالاً ، لتستكمل منطقة

نجد كلها جنوبًا . يقول فؤاد حمزة : «لم تبلغ قوة آل رشيد ما بلغته على يد محمد فقد أصبح بعد جهاد وجلاد طويلين أميرًا على سائر البلاد النجدية من وادي السرحان إلى وادي الدواسر ومن تيماء وخيبر إلى قرب الخليج العربي وكثيرًا ما كانت سلطته تمتد إلى تدمر وجبال حوران»(٤٤) .

بعد انتصاره الكاسح في معركة المليداء ، كفّ الأمير محمد بن رشيد جنده ورجاله عن البطش والتنكيل بالناس قائلاً : «... أما الفساد فلا ولا رخصة لكم بذلك وأن القصيم الآن يعتبر رعية مثلكم...»(٤٥) هذا المبدأ ، على ما يبدو ، طبقه ابن رشيد ، ليس فقط على القصيم ، بل على كل البلدان التي خضعت له ، مما أضفى على حكمه استقرارًا ورخاءً لا بأس به . ويقول العبدالمحسن ، عن هذا الأمير الشمري : «وأمّن الله به العباد والبلاد»(٤٦) . ويشرح السلمان ذلك قائلاً : «... الأمن الذي عمّ نجدًا في عهد محمد بن رشيد إنما كان بسبب سياسته مع البدو القائمة على منعهم من التعرّض لقوافل الحضر وعقابه الصارم على ذلك»(٤٧) . لكن هذا الأمن ، على مابدا ، لم يُرْخِ سدوله على بادية نجد ولم تنعم به ، حيث يواصل السلمان قائلاً : «مع ترك عادة الغزو والسلب بين القبائل بشرط أن تدفع للأمير ابن رشيد ضريبة غزوها مع دفعها للزكاة المعروفة على الإبل والغنم، ولهذا تعدّدت في عهده (المناخات) بين القبائل مثل ما بين عتيبة ومطير من نزاع»(٤٨) . ولم يكن ذلك دائمًا حيث حصل وأن تدخّل ابن رشيد في فض مثل هذه النزاعات ، التي قد تحدث بين هذه القبائل ، كما في محاولة ردّه، إبل وخيول مطير التي سلبت من قبل أحد شيوخ عتيبة(٤٩) .

وقد أثمرت سياسة قمع ومنع اعتداءات البادية ، وتأمين الحاضرة والسابلة ، والتي لعل ابن رشيد اقتبسها من الإمام العظيم فيصل بن تركي ، أثمرت هذه السياسة ، في نمو وازدهار التجارة في نجد ، وبالذات تجارة القوافل ، (العقيلات) والتي كانت مزدهرة بين نجد وبين الشام والعراق ، والحجاز ، وبلدان الخليج العربي، وحتى مصر . ولاشك أن مما ساعد على استتباب الأمن ، وبالتالي ازدهار التجارة وتقدمها ، هو عدم اندلاع أية حروب في نجد بعد معركة المليداء ، ووقعة حريملاء ، إلا ما كان يقع بين البوادي ولا شأن

للحاضرة فيه ، كما سلف ذكره .

على أن هذا الأمن ثلم ذات مرة ، عندما تعرّضت عربان الدلابجة ، من الروقة من عتيبة في عام ١٣١٣هـ ، وأغارت على حاج عنيزة(٥٠) ، وثلم مرة أخرى ، عندما اعتدت نفس العربان على حاج شقراء ، في السنة التي تلتها(٥١) .

أما بين الحواضر نفسها ، فقد حدث شيء من الفتن والحروب ، ولكن لضآلة شأنها ، وبساطتها ، تكاد ألا تذكر . ومن هذه النزاعات ، بالتحديد ، ما ذكره المؤرخ ابن بسّام ، عن حادثتين ، الأولى كانت في عام ١٣١٠هـ حيث قال بأنه حدث فتنة بين أهل بلد أثيفية ، من بلدان الوشم ، وحصل قتال شديد في وسط البلد ، وقتل من الفريقين ثمانية رجال ، وحصل فيهم جراحات كثيرة (٥٢) . أما الحادثة الأخرى فيوردها ضمن حوادث عام ١٣١٥هـ ، والتي حصلت في بلد العطّار في سدير بين آل سيف وبين بني عمهم آل راشد ، وكلهم من العرينات من نفس البلدة ، وكانت نتيجة ذلك النزاع قتيلاً واحدًا ، وعددًا من الجرحى(٥٣) .

أما الحال بين القبائل ، فكما قيل قبلاً ، تميّزت هذه الفترة بكثير من الغارات والهجوم على بعضهم البعض . ففي عام ١٣١١هـ ، مثلاً ، شنّت قبيلة عتيبة غارتين على مطير وحرب ، وغنمت إبلاً كثيرة ، وتكبّد الفريقان بعض القتلى والجرحى ، كان منهم أحد شيوخهم(٥٤) . وفي العام الذي تلاه ، ١٣١٢هـ في شهر رجب تناوخ الدواسر هم وقحطان على القويعيّة ، وحصل بينهم قتال شديد ، حيث قتل من الفريقين ، كما يروي ابن بسّام ، أعدادٌ كثيرة ، وكانت الهزيمة في النهاية على الدواسر(٥٥) .

ومثل هذه النزاعات والغارات لا تعد ذا بال ولا تؤثر في منطقة شاسعة كنجد، وفي فترة كتلك كانت معتادة عليها ، ولذا فإن حاكم نجد إذ ذاك الأمير محمد بن رشيد ، لم يأبه بها ، وخصوصًا نزاعات البادية ، طالما أنها لا تضرّ ولا تمسّ مصالح الناس . يقول العثيمين : «على أن النزاع بين القبائل الرُّحل ظل قائمًا . وربما كان ذلك غير مهم للأمير مادامت تلك القبائل تعترف بسلطته ، وتدفع إليه الزكاة ، ولا تعتدي على قوافل الحج

والتجارة المشمولة برعايته»[٥٦] .

بعد أن استتب الأمر في نجد للأمير محمد بن رشيد وبعد أن أصبح حاكمها المطلق ، ساس الرعية سياسة حسنة ، واهتم بأمن الحواضر وقوافلهم ، مما أدى إلى انتعاش التجارة والزراعة في عهده . ويعطي المؤرخ الذكير صورة مشرقة للحياة التجارية والزراعية في عهد هذا الأمير ، وخصوصًا في السنوات السبع الأخيرة من حكمه ، حيث يقول : «... فتأتي القوافل من الكويت ومن العراق ومن الشام والحجاز مثقلة بالأموال ... فلهذا تجد من بضائع الشام والحجاز ما لا تجده في العراق والكويت وتجد فيها (في نجد) من بضائع الهند وأوروبا ما تجده في الشام وفي الحجاز وكانت نجد تصدّر من البضائع أكثر مما تستهلك»[٥٧] .

وقد صادفت هذه السنوات تتابع هطول الأمطار فتوفر الكلأ وانتعشت الزراعة ، ونتيجة لهذا تحسنت أحوال الناس وتوسعت أرزاقهم . وقد أشار إلى ذلك الذكير بقوله : «... فتوفّر لأهل نجد أسباب الرزق وتوسعوا في معاشهم وكانت حاصلات نجد متوفرة جدًا لتتابع الخصب في هذه السنوات السبع وكثر الإنتاج وصارت تصدّر من محصولاتها الشيء الكثير فكانت زراعة البلاد تكفي حاجات أهلها حواضرها وبواديها ولا يحتاجون لاستيراد شيء من الأطعمة إلا الشيء اليسير جدًا . وكانت حاصلات السمن تُصدّر إلى سورية والكويت والحجاز ما يكفي لسد حاجات أهل هذه الأقطار . ومن أهم ما يصدّر من نجد الإبل والغنم إلى سورية...»[٥٨] .

أما فيما يتعلق بالأمور السياسية والإدارية ، فقد عيّن الأمير محمد بن رشيد أمراء من قبله على البلدان التي دخلت تحت حكمه ، كما تقدم ، من مواطني هذه البلدان وأهلها أحيانًا ، ومن خارجها أحيانًا أخرى . واستمرت الأمور كذلك ، حيث سارت على هذا المنوال حتى وفاته . فمدينة بريدة ، مثلاً ، أبدل أميرها الصارم حسين بن جراد بحمود بن زيد ، الذي ما لبث أن عزله وعين بدلاً عنه سعد الحازمي ، الذي استمرت إمارته على بريدة حتى بعد وفاة الأمير محمد بن رشيد[٥٩] . أما مدينة عنيزة ، فقد استمر

أميرها المعيّن من قبله، في منصبه، حتى وفاته في عام ١٣١٢هـ، حيث خلفه على الإمارة أخوه صالح آل يحيى، ويقول البسّام في هذا الصدد: «في هذه السنة توفي عبدالله آل يحيى آل صالح أمير بلد عنيزة وجعل أهل عنيزة مكانه أخاه صالح آل يحيى آل صالح»[٦٠].

أما الرياض، عاصمة الدولة السعودية، فقد أبقى الأمير محمد بن رشيد على إمارة محمد بن فيصل عليها، حيث استمر حتى وفاته في عام ١٣١١هـ.[٦١]

منصب القضاء، والذي كان يلي في الأهمية والسلطة منصب الإمارة مباشرة، أيضًا طالته يد أمير نجد، بما رآه ملائمًا، ومتكيّفًا مع الوضع الجديد حيث عزل قضاة، وأبقى آخرين. وكان ممن عُزِلَ الشيخ صالح بن قرناس قاضي عنيزة. عزله عن قضاء هذه المدينة، وأحلّ محله الشيخ الشهير عبدالله بن عائضْ. ولعل وراء ذلك هوى سياسي، حيث يقول الشيخ عبدالله البسّام مؤلف كتاب «علماء نجد»: «... فتم للأمير محمد بن رشيد ... الاستيلاء على القصيم فعيّن في قضاء عنيزة الشيخ عبدالله بن عائض برغبة الزعيم الكبير عبدالله بن عبدالرحمن البسّام»[٦٢] وقد كان الشيخ ابن قرناس، بجانب قضاء عنيزة، يلي قضاء الرّس، حيث أبقاه الأمير ابن رشيد عليه، واستمر فيه حتى وفاته في عام ١٣٣٦هـ[٦٣]. أما الشيخ ابن عائض فقد استمر في منصبه هذا حتى أوائل عهد الأمير عبدالعزيز بن متعب بن رشيد، حيث عزله هذا الأمير في عام ١٣١٧هـ[٦٤]. وفي مدينة بريدة، أبقى الأمير محمد بن رشيد على شيخها وقاضيها الذائع الصيت محمد بن عبدالله بن سليم، وأقرّه على قضاء هذه المدينة، وظلّ في هذا المنصب حتى أوائل عهد الأمير عبدالعزيز بن رشيد[٦٥].

العلاقات الخارجية

أما العلاقات الخارجية، فإن محمد بن عبدالله بن رشيد، قبل أن يصبح حاكمًا لنجد، بل حتى قبل أن يلي إمارة حائل، كان أميرًا لقوافل الحج العراقي. كان ذلك طبقًا لرواية الذكير، منذ عهد أخيه الأمير متعب بن عبدالله بن رشيد[٦٦]. لكنه اضطّر إلى

ترك هذه المهمة ، عندما قتل أخوه هذا في عام ١٢٨٥هـ، وهرب هو إلى الإمام عبدالله بن فيصل ، حيث بقي لاجئًا عنده في الرياض ، حتى أصلحه هذا الإمام مع الأمير الشمري الجديد بندر بن طلال . وذلك في عام ١٢٨٦هـ ، فعاد إلى تولي إمارة الحاج العراقي مرة أخرى(٦٧) .

هذه واحدة من العوامل التي كانت تربط الأمير محمد بن رشيد بالعراق العثماني ، وبالتالي بالدولة العثمانية ، وولاتها في هذا البلد . غير أن هناك عوامل أخرى ، ربما كانت أهم ، يقول العثيمين : «وكانت العراق مؤئلاً لكثير ممن غادر نجدًا من قبيلة شمّر لأسباب متعددة ، كما كانت أهم مصدر من مصادر الأطعمة لسكان الجبل ولأمرائه خاصة . وبالإضافة إلى ذلك كلّه فإن الدولة العثمانية كانت تسيطر على منطقة الحجاز ومنطقة الأحساء والقطيف . ومعلوم مالسكان نجد، بصفة عامة ، من مصالح مهمة في هاتين المنطقتين»(٦٨) .

وأخيرًا يجب ألا ينسى الباحث عاملاً مهما في التقارب العثماني - الرشيدي ، الا وهو أن الأمير محمد بن عبدالله بن رشيد حكم نجدًا بعد انهيار الدولة السعودية الثانية ، وقبلها الأولى ، وكلتا الدولتين كانتا على غير وئام مع الدولة العثمانية ، حيث ناصبتهما العداء ، وقضت على الأولى ، وساعدت على انهيار الثانية .

كل هذه العوامل مجتمعة ، جعلت الرابطة والعلاقة بين هذا الأمير وبين الدولة العثمانية ، أو بالأحرى ولاة هذه الدولة في العراق ، متينة الصلة . بل جعلت الأمير محمد بن رشيد يعدّ نفسه تابعًا لهذه الدولة ، ويحاول في كل مناسبة وأخرى ، أن يوطّد ويدعم هذه العلاقات الوديّة ، التي كانت في الواقع قائمة وسائدة بين هذه الدولة ، وبين أسلافه من قبل(٦٩) .

أما الكويت فقد كانت لها علاقة مع الأمير محمد بن رشيد ، تختلف تمامًا عن علاقته وصلَته تلك بالعراق . في عهد الشيخ محمد الصباح لم يكن هناك من الأمور ما يعكِّر صفو العلاقات بين نجد والكويت ، إذا تجاوزنا ، لجوء إمام نجد عبدالرحمن

الفيصل، وأمراء القصيم، والذي تم بإذن وبرغبة عثمانية، وموافقة من شيخ الكويت[٧٠]، كما أن الأمير محمد بن رشيد لم يحرك ساكنًا وإن قام بالتجسس عليهم في الكويت[٧١].

لكن ما إن تبوأ الشيخ مبارك الصباح الحكم، بعد إغتياله أخويه محمد وجرّاح، حتى تلبّدت أجواء العلاقات بين البلدين، وتحوّلت إلى الحذر المتبادل، فالشيخ طامع في نجد، والأمير طامع في ميناء لنجد. على أن هذا التغيّر أو التدهور في العلاقات لم يتعدى هذا الحد، ولم يصل إلى الصراع المسلح إلا في فترة تالية، وذلك بعد وفاة الأمير محمد بن رشيد.

في قصة طويلة، تزعّم التاجر الكبير يوسف البراهيم خال أبناء الأمير محمد الصباح أمير الكويت وأخاه جرّاح اللذين اغتالهما أخاهما مبارك، كما تقدم، وأصبح أميرًا للبلاد، تزعّم هذا التاجر قضية الأخذ بالثأر من الشيخ مبارك، وقد طوّحت به هذه القضية بعيدًا؛ إلى بومباي في الهند، بعد أن خاف المطاردة في العراق[٧٢]. قال خزعل: «وفي أثناء مكوثه في بومباي ورد كتاب من تحسين باشا (باشكاتب المابين) إلى الأمير محمد الرشيد في حائل يطلب منه التوسط لاجراء الصلح بين الشيخ مبارك وبين يوسف البراهيم.

غير أن هذا الخبر تسرّب إلى يوسف البراهيم بعكس الحقيقة فق أبلغ إليه أن الدولة العثمانية قد أمرت الأمير محمد الرشيد أن يستعد بجيوشه لمؤازرته والبطش بالشيخ مبارك والقضاء عليه»[٧٣]. كان هذا كل ما يتمناه يوسف البراهيم، فطار فرحًا بهذا الخبر، وأبحر على جناح السرعة بأول سفينة تجارية غادرت بومباي إلى البصرة، حيث وصلها متخفّيًا، كما يقول خزعل[٧٤]. ثم غادر هذه المدينة إلى الزّبير، ومنها شدّ الرحال وأسرى ليلاً إلى وجهته القصية؛ إلى ديار ابن الرشيد في نجد. وقد كان يوسف بن إبراهيم، في رحلته الأخيرة هذه متنكرًا في شخصية راعٍ من رعاة الأبل، وذلك زيادة في الحيطة والتّخفي عن الشيخ مبارك الصباح وعيونه[٧٥].

كان يوسف البراهيم ، وهو في الطريق إلى حائل ، تحدوه الآمال العراض ، بأن الأمر كله قد صبّ في ركابه ، وأن الساعة قد حانت ، لا سيما وأنه كان قد كاتب ابن رشيد من قبل ، ووعده هذا الأمير بالنصرة والتأييد[٧٦] . لكن ما إن حط الرحال في قاعدة جبل شمر ، حتى تبخّرت كل آماله وخابت ؛ أوقفه الأمير محمد بن رشيد على حقيقة الخبر . ولما تبين ليوسف بن إبراهيم أن الأمر لا يعدو أن يكون أكثر من وساطة صلح، رفضه ومكث في حائل يرقب الأحداث[٧٧] . ولقد صادف أن أُعْتدي على قافلة تجارية ، لأهل حائل ، بالقرب من الكويت وهي خارجة منها وقتل أصحابها ، فأتهم الأمير محمد بن رشيد ، الشيخ مبارك ، كما يقول خزعل ، بأنه هو الموعز بقتلهم . وعبثًا حاول الشيخ مبارك ردّ هذه التهمة عن نفسه ، ونفيها ، كما وقدّم إعتذاره بأن لا علم له بهذه الحادثة ولا اطلاع ، غير أن ابن رشيد أصرّ على موقفه ورأيه[٧٨] . ويواصل خزعل قائلاً : بأن يوسف بن إبراهيم ، الموجود لدى ابن رشيد «كان يحثّه ويثيره على محاربة مبارك ، ويحسّن له انتزاع الكويت ، ولو لم تعاجل المنية محمد بن رشيد ... لما سلم الشيخ مبارك من تلك الدسيسة ولا نجرت الكويت إلى مشكلة وخيمة وعسيرة جدًا»[٧٩] .

ويتّفق ضاري الرشيد مع قول خزعل هذا ، وهو نيّة محمد بن رشيد على حرب الكويت ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك حيث يقول بأن الأمير محمد بن رشيد اتّفق مع أمير قطر قاسم بن ثاني على الهجوم على الكويت ، واحتلاله «وكانت سياسة محمد الرشيد أن ينتهز الفرصة في الاستيلاء على الكويت ليجعلها ميناء لجبل شمر ، ويكون مبتعدًا عن الحكومة العثمانية والامتياز من بلادها ، وكان موعدهما (قاسم بن ثاني ومحمد بن رشيد) الربيع الآتي ليقوما بتجهيزات فيكون ابن الصباح واقعًا بين نار أميرين ... وقبل أن يأتي الموعد المضروب توفي (الشيخ) محمد بن رشيد»[٨٠] .

حقيقةً ، العلاقة بين الأمير محمد بن رشيد ، وبين الشيخ مبارك ، لم تكن في يوم من الأيام على ما يرام ، ولم تكن علاقة ودّ أبدًا حتى قبل حادثة القافلة تلك ، غير أنها ، كما ظهر ، لم تصل إلى الدرجة التي صوّرها أو توقّعها كل من خزعل وضاري الرشيد . فالشيخ مبارك ، منذ أن تولى الحكم ، بادره ابن رشيد بالنقد اللاذع على فعلته الشنعاء

تلك ؛ قتل أخويه ، ولكنه ردّ عليه بجواب أفحمه فيه وأحرجه . قال الذكير : «... ابن رشيد كان ناقمًا على مبارك عمله باخوته وكتب له بوقته كتابًا شديد اللهجة يؤنبه ولكن مباركًا جاوبه وقال لا يحق لك أن تؤنبني على عمل قد سبقتني أنت على أعظم منه»(٨١) . والشيخ مبارك هنا يشير إلى حادثة قتل الأمير محمد بن رشيد لابن أخيه الأمير بندر بن طلال وإخوته الأربعة واستيلائه على الحكم بعد ذلك(٨٢) .

لكن بالرغم من هذه العلاقة المتوترة ، فإن الذكير يؤكد بأن الأمير محمد بن رشيد ، لم يفكّر يومًا في حرب الكويت . وعندما استنصره يوسف البراهيم ، كان هذا الأمير يمنّيه ويؤمله بوعود جوفاء ، يرسلها إليه شفاهة مع رسله ومندوبيه ، لأنه يرى أنه ، وإن كانت ، العلاقة متردية بينه وبين الشيخ مبارك إلا أن «ذلك لا يكفي إلى حمله على مجابهة ابن صباح بالعداء»(٨٣) .

ولربما كان الأمير محمد بن رشيد ، وهو الذي تربطه علاقة وثيقة بالدولة العثمانية ، ويُعدُّ تابع لها ، ولو تبعيّة اسميّة ، لربما أحجم عن أمر كهذا ، لا تحبّذه هذه الدولة وربما حذّرته عنه(٨٤) . وإجمالاً ، لعل من الممكن القول بأن ابن رشيد نظر إلى هذا الأمر ، وتصرّف نحوه متأثرًا بسياسة ونفوذ الدولة العثمانية ، وتحت المظلة العثمانية عموماً . يقول العثيمين : «لعلّ هذا الأمير قد أدرك مغزى عدم إقدام الدولة العثمانية ذاتها على التدخل العسكري في الكويت ، فلم يرد أن يقدم على ما أحجم عنه من هو أقوى منه وأدرى بالظروف السياسية المحيطة بتلك البلاد»(٨٥) . ولعل هناك أسبابًا ومحاذير أخرى جعلت ابن رشيد يحجم عن فتح جبهة مع الكويت ، بع أن اصبحت مأوى وملاذًا للجالين النجديين بعد معركة المليداء ، وذلك حتى لا يكتوي بنارهم التي اكتوى بها خلفه ابن متعب، بعد أن ناصب الكويت العداء(٨٦) ، كما سيأتي .

نجد بعد الأمير محمد بن رشيد

لم يشن الأمير محمد بن رشيد حربًا على الكويت طوال حياته ، وظلت العلاقات بينه وبين هذا البلد هادئة ، مثلها مثل الأمور الداخلية ، حيث سارت الحياة بأهل نجد،

على هذه الوتيرة الهادئة ، في ظل حكم هذ الأمير الحصيف ، واستمرت على هذا المنوال، حتى منتصف عام ١٣١٥هـ حيث توفي، وكان بعده الطوفان الذي غمر كل نجد، وعاني الكويت منه ، ثم جاء الفرج الكبير . أجل توفي محمد بن رشيد ، وكان عقيمًا ، فتولى الحكم بعده إبن أخيه الأمير عبدالعزيز بن متعب بن رشيد. وكان في جلّ صفاته على عكس عمه ، فتغيّر كل شيء .

خلفت تلك السنوات السبع السمان ، التي أشار إليها الذكير(٨٧) ، سنوات جَدْب عجاف ، لكن لم تطل معاناة أهل نجد ، حيث بدأت بوادر الفرج تطلّ عليهم ، عشيةَ الانطلاقة المباركة لعبدالعزيز بن عبدالعرحمن آل سعود ، من الكويت .

الأمير محمد بن عبدالله بن رشيد إذا كان بدأ حكمه وبناه على غدر وإغتصاب ، فقد ختمه بتفريط وسوء اختيار . اغتصب حكم حائل ، كما تقدم ، من الأمير بندر بن طلال ، واغتصب حكم نجد كلها من الإمام عبدالرحمن بن فيصل ، وأوصى به إلى من لا يستحقه ، ولا يعرف كيف يصونه ، أو يحفظه . وقد تبيّن الأمير محمد بن رشيد ، خطأه الفاحش في هذا الاختيار ، وهو بعد على قيد الحياة ، ولكن على ما يبدو لم يستطع أن يتدارك الأمر ، حيث كان قد سبق السيف العذل، وجعل ابن أخيه ، كما تقدم ، عبدالعزيز بن متعب ، وليًا لعهده ، ابن أخيه الذي ربما انطبق عليه ، قول الشاعر :

أعطيت ملكًا فلم تحسن سياسته ــــ وكل من لا يسوس الملك يخلعه(٨٨)

ويقول الريحاني «قد كان للأمير محمد طرائق ثلاث في التغلب والاستيلاء هي : الكرم، والسيف، والإرهاب. فيستميل إليه من يستطيع استمالتهم بالهدايا ، ويشهر الحسام على من لا تغرّهم هداياه ، ويمشي إلى غرضه على ظهور أولئك الذين يخشون سطوته فقد كان ولا غرو مهوبًا ولكنه على الإجمال لم يكن محبوبًا»(٨٩) . نعم لم يكن محبوبًا ، وبالذات في القصيم والعارض ، لكونه العدو التقليدي لأهل القصيم ، ولإغتصابه الحكم(٩٠) . وإذا كان هذا كذلك ، فإن خليفته لم يكن محبوبًا مطلقًا ، بل كان مكروهًا ، ومبغضًا ، وإذا كان للأمير محمد طرق ثلاث في الحكم ، فقد اكتفى ابن

متعب بواحدة منها فقط؛ اكتفى بالسيف وجعله الواصل الفاصل بينه وبين الرعية، وعاملهم وكأنهم الدّ خصوم . قال أحد المؤرخين : «كان يرى أقل خطأ ... جرمًا كبيرًا يستوجب سفك الدماء»[٩١] ويقول المؤرخ محمد العبيد : «والحق يقال أن ولايته على نجد كلها مظالم وويلات وإهراق للدماء بغير حق ... وأخذت الدعوات تتوارد عليه من الألسن كلها من مظلوم مقهور»[٩٢] .

وتعطي المصادر التاريخية المتوفرة وصفًا قاتمًا وصورة موحشة لهذا الحاكم النجدي. يقول على سبيل المثال، خالد الفرج : «كان «عبدالعزيز المتعب الرشيد» فارسًا شجاعًا وبطلاً مغوارًا إلى حد الهوج وبلغت به شجاعته درجة من القساوة والسطوة أفقدته المرونة السياسية التي هي من شروط الأمراء الأساسية وأعلى درجة من الشجاعة الهوجاء، فكان مثال الجبروت والكبرياء والصلف وتروى عنه حكايات تعد من باب الخرافات لغرابتها، يضاف إلى ذلك منه سوء التدبير وعدم الأخذ بالحزم والرأي والتبصر ...»[٩٣] .

بعد أن تولى الأمير عبدالعزيز بن متعب الحكم، أرسل إلى أمراء البلدان وأقرهم على مناصبهم، وأمرهم بأخذ البيعة له من الناس[٩٤] . لكنه أجرى بعد ذلك بعض التغييرات الإدارية، والقضائية . ففي مدينة بريدة، قام ابن متعب بعزل أميرها سعد الحازمي، وعيّن بدلاً عنه فهد بن محمد القويعي، ثم عزل هذا وأعاد أميرها السابق سعد الحازمي مرة أخرى . وبعد معركة الصرّيف، أي في عام ١٣١٨هـ كما سيأتي، عزل الحازمي، وأبدله بسالم السبهان، أمير الرياض السابق. وما لبث أن عزل هذا، وجعل مكانه على إمارة بريدة عبدالرحمن بن ضبعان، أحد أمراء الرياض السابقين أيضًا، وهو آخر عامل رشيدي على هذه المدينة[٩٥] .

أما في عنيزة، وبعد موقعة الصّريف، أيضًا، عزل ابن رشيد أميرها صالح آل يحيى، وجعل مكانه ابن أخيه حمد آل عبدالله يحيى. ويقول ابن بسام: «وفي أول يوم من ذي الحجة (١٣١٨هـ) عزل صالح آل يحيي عن إمارة بلد عنيزة وجعل أهلها مكانه

أميرًا إبن أخيه...»[٩٦] والأمير حمد آل يحيى هذا هو آخر أمير من قبل آل رشيد على هذه المدينة .

أما فيما يتعلق بالقضاء فقد أعفي قاضي عنيزة الشيخ عبدالله بن عائض ، الذي عينه الأمير محمد بن رشيد، بعد معركة المليداء مباشرة ، أعفي من منصبه عام ١٣١٧هـ، وحل محله الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر ، الذي استمر في القضاء حتى عام ١٣٢٣هـ[٩٧] .

أما مدينة بريدة فقد كان قاضيها ، حتى قبل حكم آل رشيد هو الشيخ محمد بن عبدالله بن سليم الذي استمر على القضاء ، حتى أوائل حكم الأمير عبدالعزيز بن متعب حيث أعفاه وعين بدلاً عنه الشيخ صالح بن قرناس[٩٨] . ويقول إبراهيم العبد المحسن بأن ابن رشيد لم يكتف بعزل الشيخ محمد بن سليم عن القضاء ، بل نفاه ومعه أحد أبنائه إلى منطقة نائية في القصيم . ونفى ابنًا له آخر إلى بلد ثان[٩٩] . ويواصل هذا المؤرخ قائلاً : بأن ابن رشيد «عزل أئمة المساجد وأبدلهم بأئمة آخرين ، وقُطِّعت رواتبهم»[١٠٠] . وقد طال جور الأمير عبدالعزيز بن متعب بعض أغنياء الناس إذ ذاك ، فسبى أموالهم، بعد أن همّ بقتلهم[١٠١] .

يقول الذكير بأن أول غزوة غزاها الأمير عبدالعزيز بن متعب بعد وفاة عمه كانت غزوته على عنزة « أهل سبعين ذلولاً... فقتلهم عن آخرهم»[١٠٢] . ويبدو أن هذه الغزوة أو الوقعة ، قد حدثت في عام ١٣١٥هـ أي بعد وفاة الأمير محمد بن رشيد مباشرة ، حيث يورد المؤرخ مقبل الذكير السنتين التاليتين لها ١٣١٦هـ، ١٣١٧هـ ، ويقول بأنه لم يحدث فيهما ما يستحق الذكر والتدوين ، الا غزوات على البوادي والتي ليس من ذكرها ، كما قال ، فائدة[١٠٣] . وعند الرجوع إلى المصادر التاريخية الأخرى ، يتضح ، بالفعل ، عدم ذكرها لأي وقعات أو حروب في هذه السنين[١٠٤] . لكن مع هذا ، لم يكن الأمن ، أبدًا ، مستتبًا بشكل تام . يقول عبدالله السلمان في تاريخه بأن السبل والسابلة في عهد الأمير عبدالعزيز بن رشيد ، بالرغم من شدته ، لم تكن آمنة، وأن

الناس في عهده كانوا بين نارين «في شدة منه ومن البوادي»[١٠٥] .

بالإضافة إلى هاتين الضائقتين، ابتلي أهل نجد بضائقة ثالثة، الا وهي القحط والغلاء وشدة المؤنة، كما يذكر ذلك ابن بسام، حيث أجدبت الأرض، وهلكت كثير من الحيوانات، خصوصًا الإبل، التي أصيبت ببعض الأمراض، وكانت خسارة الناس فيها فادحة، سواء في البادية أو الحاضرة[١٠٦] . زيادة على هذه الكوارث، فقد عانى النجديون كثيراً، في عهد هذا الأمير . تروي بعض المصادر التاريخية بأن عبدالعزيز بن رشيد قد قام بتخفيض وإلغاء بعض المخصصات المالية، والعوائد والمعاشات السنوية، التي كانت تصرف لشيوخ القبائل، بل إنه قطع كثيراً من الصدقات، ومنعها عن مستحقّيها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد فرض كثيراً من الضرائب على الحاضرة والبادية «واعتمد على القوة المحضة والإستقلال بالأمر حتى أنه ما كان يوقّر أحدًا أو يرعي له منزلة»[١٠٧] .

سياسة ابن متعب الخارجية

اما سياسة الأمير عبدالعزيز بن متعب الخارجية، فلم تكن بأفضل أو أحسن حالاً من سياسته الداخلية . يقول شاعر عنيزة عبدالعزيز القاضي في مطولته « العنيزية » :

قد كان ضلامًا غشومًا صارمًا　　　متقمصًا في الحكم ثوب شقاء
حتى أثار خصومه من حوله　　　متخبطًا كتخبط العشواء[١٠٨]

ويقول مقبل الذكير عن عبدالعزيز بن متعب وعن حكمه وسياسته، بأن ولاية هذا الأمير كانت مفتاح المصائب والنكبات والفتن والقلاقل والحروب وكان طالعه نحس على نفسه وعلى أهل نجد عمومًا[١٠٩] . ويواصل قائلاً عن هذا الحاكم، بأنه ما كاد أن يتربع على كرسي الإمارة حتى أخذ بسوء سياسته يفتح على نفسه أبواب الشر والفتنة[١١٠] .

نعم، فعندما قدم إليه يوسف البراهيم، الذي علله عمه محمد بن رشيد بوعود

داره[١٢٢] ، هذا بالطبع إلى جانب ما كان يتمتع به شيخ الكويت ، من طموحات ، ومزايا عسكرية تؤهله لقيادة حملة كبرى كهذه[١٢٣] .

لهذه الأسباب ، وربما لغيرها ، سيّر الشيخ مبارك جيشًا جراراً من الحواضر والبوادي يربو على العشرة آلاف مقاتل ، وانضم إليه بعض حلفائه، كسعدون أبو عجيمي[١٢٤] ، وأهم منه حلفاؤه القريبون منه ؛ حكام نجد السابقون وأمراؤها[١٢٥] . سار بهذا الجيش اللجب في الأول من رمضان عام ١٣١٨هـ الموافق ٢٢ ديسمبر ١٩٠٠م ، وبعد توقف في الحفر ، واصل الزحف حتى الشوكي ، حيث انفصل عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود بفرقة من الجيش ، وقصد الرياض واستولى عليها ، لكن استعصت عليه قلعتها أو قصرها الذي تحصّن فيه عامل ابن رشيد عبدالرحمن بن ضبعان[١٢٦] .

أما بقية جحافل هذا الجيش العملاق ، وكبيره الشيخ مبارك ، فقد واصل زحفه حتى بلغ مشارف القصيم في ٢٣ شوال ١٣١٨هـ الموافق ١٢ فبراير ١٩٠٠م ، واستمر في المسير حتى توغل في القصيم[١٢٧] فدخل آل سليم أمراء عنيزة ، مدينتهم واستولوا عليها بدون أي مقاومة ، وكذلك فعل آل مهنا في بريدة ، حيث استولوا عليها بدون أي مقاومة أيضًا ، وذلك لأن أهل المدينتين يكنّون ولاءً خاصًا لأمرائهم السابقين ، وقد طُردَ أمراء البلدتين المعيّنين من قبل ابن رشيد[١٢٨] . ولاشك أن كل هذا قد تم باتفاق وترتيب مسبق مع كبار أهل هاتين المدينتين .

أما فيما يتعلق بالأمير عبدالعزيز بن متعب بن رشيد فظلّ يتقهقر ، ويطيل في الأمر ، وذلك لعدة أسباب ، كما يقول الذكير ، أولها : أنه لا يريد الاستعجال في منازلة هذا الجيش الذي ربما فاقه عددًا وعدة قبل أن يستكمل استعداداته ، وثانيها : أنه اراد استدراج خصمه وجرّه إلى قلب نجد ، وإبعاده عن بلاده ومددها . وثالثها : لأن المطاولة ، والتسويف في بدء اللقاء والمناجزه تفيده هو ، وتضر بخصمه ، لأن جل جيش الشيخ مبارك بن صباح من البوادي الذي لا طاقة لهم ولا جلد على الصبر على المطاولة

والانتظار[١٢٩].

نزل الشيخ مبارك بجيشه على النبقيّة، قرية من قرى بريدة، فما راعه إلا ظهور جيش ابن رشيد أمامه مباشرة، على الطرفيّة، وهو على أتم استعداد بعكس جيشه الذي يقول عنه الذكير بأنه كان مشتتًا هنا وهناك، ولم يكن مستعدًا للقاء حيث لم يتوقع مبارك منازلة خصمه في ذلك اليوم[١٣٠]. ويبدو أن ابن رشيد قد أخذهم على حين غرة وفاجأهم، حيث قرن صعاب الإبل وجعلها صفًا واحدًا تتقدم الجنود، وساقها عليهم، واصبحت ستارًا للجنود والفرسان الذين ساروا خلفها، ودهم جيش مبارك بهذه الطريقة[١٣١]. والتقى الجيشان في السادس والعشرين من ذي القعدة عام ١٣١٨هـ والتحما في مكان يُسمى «الصّريف، وحدثت بينهما معركة حامية الوطيس، عدّت واحدة من وقائع العرب في التاريخ الحديث[١٣٢].

في ظهر ذاك اليوم الأحمر، ثار غبار الحرب وتصارع الفرسان وتجندلت الرؤوس، قال خزعل: «وكان الأمير عبدالعزيز الرشيد يخوض المعركة (في نفسه) في ذلك اليوم فتراه تارة في الميمنة وطورًا بالميسرة وحينًا في القلب ... وبقيت الحرب دائرة الرحا لمدة خمس ساعات وقد اشتركت الطبيعة فيها بزوابعها وأمطارها ...»[١٣٣] ليس غريبًا أن يخوض الأمير عبدالعزيز بن متعب غمار المعركة بنفسه، فقد كان يعدّ، في زمانه، واحدًا من فرسان شبه الجزيرة العربية وشجعانها. لكن، لعلّ هذه المعركة، كانت تعني بالنسبة إليه حياة أو موتًا. قال خزعل، أيضًا، وهو ينقل ردّ ابن رشيد، واجابته على من طلب منه عدم المخاطرة بنفسه في هذه المعركة: «فأبى الأمير عبدالعزيز الرشيد أن يتقدم عليه أحد وقال (لا يتقدم إلا أنا فإما أن أقتل أو انتصر فإن قتلت فإني فداء لملكنا)»[١٣٤].

لم يكن أمام ابن متعب إلا أن يفعل هذا، فقد كان في مواجهة صعبة، حيث كان أمام تحدّ من جيش كثيف، يجثم في قلب البلاد، وعلى رأسه ألدّ أعدائه؛ مبارك الصباح. بالإضافة إلى هذا، فقد رأى بوادر خروج بلدان القصيم من تحت حكمه، ولا شك أنه سمع بحركة عبدالعزيز بن عبدالرحمن في الرياض، تلك الحركة التي كانت

قاب قوسين أو أدنى من النجاح. كان الأمير عبدالعزيز بن متعب قبل أن تدور رحى هذه المعركة ، كما يروي ضاري بن فهيد الرشيد ، قد طلب المدد والعون العسكري من العثمانيين في العراق . وكان هؤلاء ، قد شرعوا في تجهيز حملة كبيرة ، كما يقول ضاري، لإرسالها إلى نجد(١٣٥) . غير أن ابن رشيد رأى أن وصول هذه الحملة سيتأخر ، وأن الأمر خطير لا يحتمل التأخير. قال ضاري الرشيد : «فلما رأى أن الأمر يبطئ عليه إذا أراد أن ينتظر ما تجهّزه له الدولة جمع نفسه وسار إلى مناجزتهم قبل أن يتّسع عليه الخرق ويكبر عليه الأمر»(١٣٦) .

قرر عبدالعزيز بن رشيد ، أمير نجد إذ ذاك ، أن ينازل هذا الجيش العرمرم، بجيشه منفردًا ، بدون تلك الحملة المنتظرة ، ورسم خطته الحربية التي يصفها ضاري الرشيد قائلاً: «وكانت جنده نحو إثنا عشر ألف على الأكثر أكثرها فرسان فبنى قاعدة مناجزته لهم على ثلاثة أمور :

١ - أن يفاجئهم على غرّة وتكون مفاجأته لهم آخر نهار حتى إذا غلبهم يبددهم ويتفرق رأيهم في قبالة الليل ، واذا هم غلبوه يمكنه أن يهرب بجنده تحت ظلام الليل .

٢ - أنه قسم فرسانه إلى قسمين قسم أمره بالهجوم من مؤخرة العدو والقسم الثاني قسمه إلى قسمين قسم يشغل فرسان العدو بالمبارزة والقسم الثاني يحمل جندًا إلى مشاغلة ميمنة العدو وميسرته .

٣ - أنه جمع نحو ألف من صعاب الإبل وعلّمها على الهجوم على العدو ، وذلك بأنه يصفّ جنده ثم يأمر الفرسان بأن تأخذ الإبل وتأتي بها من مكان بعيد تحدوها على الجند المصفوف فإذا اقتربت من الجند مقبلة عليهم رموها بدون رصاص ، وهكذا حتى تعلّمت بأن تطأ الإبل الجند بدون أن تفزع أو تهرب من البارود وصوته»(١٣٧) .

بعد أن أتم ابن متعب هذه التدريبات والاستعدادات واعتقد أن جيشه قد أصبح جاهزًا ، قرر النزال ومناجزة الخصم. يواصل ضاري الرشيد قائلاً : «فلما تم له تلك التعاليم كلها في مدة نحو شهر حمل على ابن صباح ومن معه من الجنود سائرًا على

القاعدة التي اتخذها رسمًا في حربه، ففي غرّة أتاهم بُعَيْد الظهر في شدّة القيلولة وهاجمهم ونفذ ما أراده من قاعدته الحربية فتم له النصر وانخذل عدوه... ورجع ابن الصباح خائبًا»(١٣٨).

ويورد ابن هذلول وصفًا مختصرًا لهذه لمعركة يقول فيه: «التقى الجيشان الكويتي والرشيدي في أرض الصّريف بالقرب من مدينة بريدة واستمر القتال وحمي الوطيس من قبل الظهر إلي ما بعد العصر، وقد تقهقر ابن رشيد من مركزه مرتين ولكنه في كل منهما يتراجع إلى الأمام، ثم قدّم أمام جموع جنوده صفوفًا من الإبل لتقيهم الرصاص فكانت الإبل كهشيم المحتضر، وبعد قتال عنيف أزهقت فيه أرواح لا تحصى، تمّ الانتصار لابن رشيد ولم ينج من جيش مبارك إلا مبارك نفسه وعبدالرحمن الفيصل وسعدون المنصور شيخ المنتفق ونفر قليل معهم»(١٣٩).

هزيمة جيش مبارك وأسبابها

انتصر ابن رشيد، على جيش مبارك وردّه على أعقابه، وما ذلك إلا لأنه كرّس كل إمكاناته لهذه المعركة، المصيرية بالنسبة إليه، وكان للمهارات الفروسية والحربية، التي كان يتمتع بها هو شخصيًا، وبقية أفراد جيشه عمومًا، كان لهذه المهارات والقدرات، الدور الكبير في هذا النصر، حيث صال وجال في ميدان المعركة، ومن ورائه جيشه المستبسل والمتماسك، وفي مقدمته الفرسان الذين كانت لهم اليد الطولى في هذا النصر الكاسح.

هذه النتيجة الحاسمة التي تمخضت عنها هذه المعركة، لها أسباب ومسببات، لعلّ من أهمها، كما يشرحها مؤرخ الكويت عبدالعزيز الرشيد ما يلي:

يرى هذا المؤرخ أن الشيخ مبارك الصباح قد داخله شيء من الزهْو والإعجاب بجيشه الجّرار والكثير العدد والعدّه. يقول: «لأسباب عديدة طوّق مبارك الفشل والهزيمة في تلك لحادثة المؤلمة (أحدها) إعجابه بكثرته إعجابًا لم يدعه يستعد لخصمه الاستعداد الكافي وليس في الكثرة وحدها من دون تدبير وحزم ما يضمن نيل الفوز

سيّما إذا كان الإعجاب قد تخلل الصفوف وشمل الجموع...»(١٤٠) هنا ينتقد الرشيد الشيخ مبارك بأنه جمع هذا الجيش كيفما اتفق، وأنه اكتفى بالاعتماد على هذا العدد الغفير من الجند، وأخذه الإعجاب بذلك.

ويمضي الرشيد في سرد هذه الأسباب التي يراها خلف هذه الهزيمة المرّة قائلاً: «(ثانيًا) أن جلّ المقاتلين مع مبارك من البادية وهم لا يقاتلون عن مبدأ شريف ولا عقيدة راسخة يضطرهم إلى الاستماتة في سبيلها وإنما يندفعون بدافع الطمع بالمال لا غير فإذا ما علموا والحالة هذه أن من وراء الحصول عليه إزهاق أرواحهم ضنّوا بها وأحجموا عن التقدم وولّوا الأدبار»(١٤١).

وعلى عكس هؤلاء وتصرفاتهم، كان جند ابن رشيد، حيث يورد مؤرخ الكويت، هذا، السبب الثالث لهزيمة جيش مبارك قائلاً: «(ثالثًا) ان قتال جند ابن رشيد قتال المدافع عن وطنه وعن روحه وهذا من الدواعي الكبرى إلى الشجاعة والاستبسال»(١٤٢). ويذكر الرشيد ضمن هذا السبب صفة أو سمة اتّسم بها محاربو ابن رشيد وفرسانه، وخصوصًا الشّمريّون منهم، حيث يقول: «واذا أضفنا إلى هذا كله تدرّب صغيرهم وكبيرهم على الطعن والضرب منذ نشأتهم...»(١٤٣).

كما ويرى الرشيد أن تنظيم جيش ابن رشيد لصفوفه كان: «من أقوى الأسباب في الفوز والانتصار»(١٤٤).

ويختم المؤرخ الرشيد، أسبابه هذه بذكر سبب يشابه ما أورده المؤرخ مقبل الذكير فيما تقدم، والذي قال: «... وكان الوقت ظهرًا. ولم يظن ابن صباح أن ابن رشيد سيهاجمه في ذلك اليوم ولكن ابن رشيد أخلف ظنه ... وكانت جنود ابن صباح مشتتة هنا وهناك ولم يستعد استخفافًا بابن رشيد فدهمهم وهم على هذه الحال فتلاحقوا على غير تعبئة والتحم القتال ...»(١٤٥) ويقول الرشيد: «رابعًا) انخدع مبارك بعد وصوله إلى القصيم بقول من رمى ابن رشيد بالضعف وتفكّك الجند من حوله وتفلّتهم من بين يديه وقد كان هذا داعيًا لعدم مما نعته بالرخصة لمن استأذنه من العربان حتى انفصل عنه كثير

منهم وذهبوا إلى أهليهم»[١٤٦] .

واذا كان هناك من تعقيب على هذه الأسباب التي أوردها مؤرخ الكويت عبدالعزيز الرشيد، فإن في السبب الثالث ، وهو قوله : «أن قتال جند ابن رشيد قتال المدافع عن وطنه...»، لدليل على وقوف بعض النجديين موقف المعادي من هذا الجيش ، بالرغم من كونه اشتمل وضمّ حكام نجد كلها ؛ آل سعود ، وحكام القصيم آل مهنا وآل سليم ، إلا أن القيادة لم تكن خالصة لهم . فقد كان جيش مبارك الصباح ، ويقوده مبارك الصباح نفسه ، ولذلك نظر اليه هؤلاء ، هذه النظرة ووقفوا منه هذا الموقف ، واغتبطوا لهزيمته. يقول العثيمين : «على أن هناك من النجديين من ابتهج بانتصاره ، (انتصار ابن رشيد) وهزيمة مبارك الذي كان في نظرهم معتديًا من غير أبناء البلاد»[١٤٧] .

ومما يرجح هذا القول أن عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، عندما انفصل عن هذا الجيش في الشوكي ، وقاد كتيبة خاصة به ، القيادة فيها خالصة له ، واتجه إلى الرياض، كان قاب قوسين أو أدنى من النجاح ، ولم تؤثر عليه إلا هزيمة جيش مبارك في الصّريف . وهذا صحيح أيضًا في العام التالي، ١٣١٩هـ ، عندما انطلق عبدالعزيز انطلاقته المظفّرة ، وكان النصر حليفه.

ولعلّ من سانحة القول أن يضاف سببًا إلى ماذكره الرشيد من أسباب هذه الهزيمة، أو ذاك النصر المبين لابن رشيد ، فارتجالية الشيخ مبارك ، وجمعه لهذا الجيش، كيفما اتفق ، ثم المغامرة والسير به للحرب في أرض نائية وبعيدة عن امداداته ؛ أرض ، الخصم يعرف عنها أكثر منه ، فمبارك والحالة هذه ، لم يحسن اختيار مكان المعركة ، وهذه قد تعدّ مغامرة كبيرة .

ثم أن هناك فرقًا آخر ، ولعله كان ذا أثر وتأثير ، فالشيخ مبارك ، وإن كان يعدّ واحدًا من القادة العسكريين إلا أن للسن حكمه ، حيث كان عمره ، إذ ذاك ، ينوف على الستين عامًا بسنوات ، ولهذا لم يتمكن من قيادة المعركة ، عن قرب وبشكل مباشر كما فعل ابن رشيد . قال خزعل : «كان الشيخ مبارك أثناء المعركة جالسًا في خيمته... وهو يراقب

١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م. محمد بن عبدالله بن عبدالمحسن آل عبدالقادر الأنصاري ، تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد ، الطبعة الثانية ، الرياض : مكتبة المعارف ، الأحساء : مكتبة الأحساء الأهلية ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢مم ، ص ص ١٧١ - ١٧٣ ؛ محمد عرابي نخلة ، تاريخ الأحساء السياسي (١٨١٨ - ١٩١٣) ، الكويت ذات السلاسل ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، ص ص ١٥٧ - ١٦٨ .

(٦) حصلت هذه الموقعة في ربيع الأول أو الثاني من عام ١٣٠١هـ بين الإمام عبدالله بن فيصل والأمير محمد بن رشيد . عن تفاصيلها أنظر : ابن عيسى ، عقد الدرر ، ص ص ٨٤ - ٨٥ ؛ عبدالله بن محمد البسام ، تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق ، مخطوطة ، نقلها عن الأصل المحفوظ لدى ورثة المؤلف في مدينة عنيزة ، الأستاذ نور الدين شريبة عندما كان معلمًا هناك عام ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م ، الورقتان ١٥٨ (ب) - ١٥٩ (أ) .

(٧) محمد عبدالله السلمان ، الأحوال السياسية في القصيم في عهد الدولة السعودية الثانية ، ١٢٣٨ - ١٣٠٩هـ/ ١٨٢٣ - ١٨٩١م ، الطبعة الأولى ، عنيزة : المطابع الوطنية للأوفست، ١٤٠٧ - ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧ - ١٩٨٨م ، ص ص ٢٢٦ - ٢٣٠ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .

(٩) المصدر نفسه ، ص ٢٤٠ .

(١٠) ج. ج لوريمر ، دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، ترجمة قسم الترجمة بمكتب أمير دولة قطر ، الدوحة : مطابع علي بن علي ، (د.ت) جـ١ ، ص ٩٨ ؛ السلمان ، الأحوال السياسية في القصيم ص ٢٦٩ .

(١١) المصدر الأخير ، ص ٢٣٧ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، ٢٣٧ .

(١٣) ابن بسام ، تحفة المشتاق ، ورقة ١٦١ (أ) .

(١٤) يقول داوتي بأن هذا الحلف بدأ برسالة من الأمير حسن بن مهنا أمير بريدة ، ردّ عليها زامل آل سليم ، أمير عنيزة بالإيجاب . قال داوتي :

"...Lately Weled Mahanna wrote to Zamil ana weled - ak, I am thy child (to serve and obey thee); and Zamil had written "I am thy friend." Charles M. Doughty, *Travels In Arabia Deserta*, New York : Dover Publication, Inc. , 1979, Vol. II, p. 365;

عن هذا التحالف أيضًا انظر : ابن بسام ، تحفة المشتاق ، ورقة ١٦١ (أ) ، ١٦٢ (ب) .

(١٥) السلمان ، الأحوال السياسية في القصيم ، ص ٢٥٢ :

(١٦) تولى الإمام عبدالرحمن الفيصل الحكم بعد وفاة أخيه الإمام عبدالله بن فيصل عام ١٣٠٧هـ ، واستمر في الحكم فترة قصيرة ، حيث غادر نجد ، كما سيأتي . ابن عيسى ، عقد الدرر ، ص ص ٨٨ - ٨٩.

(١٧) قبل هذه الحرب ، كان ابن رشيد قد اتبع ما عرف بالحصر أو الحصار الإقتصادي . السلمان ، الأحوال السياسية في القصيم ، ص ٢٤٨ .

(١٨) حدثت معركة المليداء في جمادي الآخرة ١٣٠٨هـ/ فبراير ١٨٩١م بين الأمير محمد بن عبدالله بن رشيد وبين منطقة القصيم تحت قيادة كل من الأمير حسن بن مهنا أمير بريدة ، والأمير زامل العبدالله آل سليم أمير عنيزة ، وكان النصر فيها حليف ابن رشيد ، عن أسبابها ونتائجها أنظر : السلمان ، الأحوال السياسية في القصيم ، ص ص ٢٥٣ - ٢٧٤ .

(١٩) إبراهيم بن عبدالمحسن ، تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديّان وذكر حوادث الزمان ، أربعة أجزاء ، الطبعة الأولى ، الرياض : مؤسسة النور للطباعة والتجليد ، (د.ت) ، جـ١ ، ص٢٩٤ .

(٢٠) ابن بسام ، تحفة المشتاق ، ورقة ١٦٤ (أ) .

(٢١) وقد توفى هذا الأمير في عام ١٣١٢هـ وخلفه على الإمارة أخوه ؛ المصدر نفسه ، ورقة ١٦٤ (أ) - ١٦٥ (ب) ؛ قارن مع السلمان ، الأحوال السياسية في القصيم ، ص ٢٧٥ .

(٢٢) أملاكهم : الأملاك يقصد بها في اللهجة النجديّة ، المزارع والبساتين .

(٢٣) مقبل بن عبدالعزيز الذكير ، مطالع السعود في تاريخ نجد وآل سعود ، (الجزء المغطّي لأحداث فترة الدولة السعودية الثانية ، ١٢٣٨-١٣٠٩هـ/ ١٨٢٢ - ١٨٩٢م) ، تحقيق سعود التركي (رسالة ماجستير لم تنشر ، قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبدالعزيز ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ، ص ٢٦٧ .

(٢٤) مقبل بن عبدالعزيز الذكير ، مطالع السعود في تاريخ نجد وآل سعود ، مخطوطة نسخت بأمر من الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام ، ومحفوظة لدى مكتبة الحرم المكّي الشريف تحت رقم ٩٩، ورقة ٢١٤ .

(٢٥) المصدر نفسه ، ورقة ٢٢١ .

(٢٦) زبن : في اللهجة النجدية تعني لجأ واختبأ .

(٢٧) المصدر نفسه .

(٢٨) المصدر نفسه . خوياه : رفاقه . وبعد وقعة روضة مهنا ، ١٣٢٤هـ، التي قتل فيها الأمير عبدالعزيز بن متعب بن رشيد، تولى الحكم بعده ابنه متعب الذي انتهج سياسة مسالمة مع السلطان عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، وأخلى سراح المعتقلين عنده في حائل من آل سعود وآل سليم . العثيمين ، تاريخ المملكة ، جـ٢ ، ص ١٠٧ .

(٢٩) الذكير ، مطالع السعود ، نسخة مكتبة الحرم ، ورقة ٢٢٥ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ورقة ٢٤٨ .

(٣١) العبد المحسن ، تذكرة أولي النهى والعرفان ، جـ١ ، ص ٢٨٦ .

(٣٢) المصدر نفسه .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٢٩٥ .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ٢٩٤ .

(٣٧) الذكير ، مطالع السعود ، تحقيق التركي ، ص ٢٦٤ .

(٣٨) الذكير ، مطالع السعود ، نسخة مكتبة الحرم ، ورقة ٢٣٩ .

(٣٩) الذكير ، مطالع السعو ، تحقيق التركي ، ص ٢٦٧ .

(٤٠) سعود بن هذلول ، تاريخ ملوك آل سعود ، الطبعة الأولى ، الرياض : مطابع الرياض ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م ، ص ٥٢ .

(٤١) Doughty, *Travels In Arabia Deserta*, Vol. II, pp. 389, 448, 451;

محمد ثنيان الثنيان ، «المؤرخ ابن بسام (١٢٧٠ - ١٣٤٦هـ) هويته العلمية وجذورها الأولى في ضوء نصوص جديدة أو منسية» مجلة جامعة الملك عبدالعزيز (الآداب والعلوم الانسانية) المجلد الثاني ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م ، ص ٩٤ .

(٤٢) الخلوج هي الناقة التي فقدت وليدها . أنظر هذه القصيدة في محمد العبدالله العوني ، من

الشعر النجدي ، ديوان الشاعر محمد العبدالله العوني ، جمعه ورتبه وفسّر بعض الفاظه عبدالله الخالد الحاتم ، الطبعة الأولى ، الكويت : ذات السلاسل ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ص ص ٦، ٢٧ - ٢٩ .

(٤٣) الذكير ، مطالع السعود ، نسخة مكتبة الحرم ، ورقة ٢٤٨ .

(٤٤) فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب ، الطبعة الثانية ، الرياض : مكتبة النصر الحديثة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص٣٥٢ ؛ أيضًا انظر : سليمان الدخيل ، القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد ، ضمن نبذة تاريخية عن نجد أملاها الأمير ضاري بن فهيد الرشيد (٠٠٠ - ١٣٣١هـ) وكتبها الأستاذ وديع البستاني ، (١٣٠٣ - ١٣٧٣هـ) ، الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م ، ص ١٥٠ .

(٤٥) العبدالمحسن ، تذكرة أولى النهى والعرفان ، جـ١ ، ص ٢٩٥ .

(٤٦) المصدر نفسه .

(٤٧) السلمان ، الأحوال السياسية في القصيم ، ص ٢٨٣ .

(٤٨) المصدر نفسه . والمناخات ، جمع مناخ «ونوّخ : أناخ إبلهم وحبسهم عن السير حتى يرضوه. والعادة أنه حينما يحصل حرب بين القبائل ، قد يعمد ك واحد من المتحاربين إلى إناخة مامعه من إبل، وحبسها ، ويتلاقى المتحاربون ، مخلّفين إبلهم ومواشيهم ، ويكون هذا في الغالب عندما تشتد الحرب بين الفريقين» حمد الجاسر ، كلمات عامية نجدية تحتاج إلي إيضاح . ملحقة بكتاب : إبراهيم بن صالح بن عيسى ، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وانسابهم وبناء بعض البلدان، (٧٠٠هـ - ١٣٤٠هـ) ، الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، (د.ت)، ص ٢٥١ .

(٤٩) فهد المارك ، من شيم العرب ، الطليعة الرابعة ، الرياض : المكتبة الدولية ، دمشق : مؤسسة الخافقين ومكتباتها ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ، جـ٣ ، ص ص ١٧١ - ١٧٣ .

(٥٠) السلمان ، الأحوال السياسية في القصيم ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٥١) ابن بسام ، تحفة المشتاق ، ورقة ١٦٦ (أ) .

(٥٢) المصدر نفسه ، ورقة ١٦٥ (أ) .

(٥٣) المصدر نفسه ، ورقة ١٦٦ (ب) .

(٥٤) المصدر نفسه ، ورقة ١٦٥ (ب).

(١١٩) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

(١٢٠) Robin Bidwell, *The Affairs of Kuwait 1896-1905, (Foreign Office Confidential Print Correspondence Respecting Affairs at Kuwait)*, Two Volumes, London : Frank Cas and Company , 1971, Vol. II, Part III, PP. 66-67.

(١٢١) عبدالعزيز ابراهيم ، أمراء وغزاة ، ص ٢٨٨ .

(١٢٢) السلمان ، الأحوال السياسية في القصيم ، ص ٢٨٨ .

(١٢٣) آل عبدالقادر ، تحفة المستفيد ، جـ١ ، ص١٧١ ؛ خزعل تاريخ الكويت السياسي ، جـ٢، ص١٢ ؛ عبدالعزيز الرشيد ، تاريخ الكويت ، بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٨م، ص ١٣٨ .

(١٢٤) الريحاني ، تاريخ نجد ، ص ص ١١٧ - ١١٨ .

(١٢٥) المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

(١٢٦) المصدر نفسه ، ص ص ١١٨ - ١١٩ .

(١٢٧) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

(١٢٨) الذكير ، مطالع السعود ، نسجة مكتبة الحرم ، ورقة ٢٤١ .

(١٢٩) المصدر نفسه .

(١٣٠) المصدر نفسه ، ورقة ٢٤٢ .

(١٣١) ضاري الرشيد ، نبذة تاريخية ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(١٣٢) الريحاني ، تاريخ نجد ، ص ١١٩ ؛ الذكير ، مطالع السعود ، نسخة مكتبة الحرم ، ورقة ٢٤٢ .

(١٣٣) خزعل تاريخ الكويت السياسي ، جـ٢ ، ص ٤٧ .

(١٣٤) المصدر نفسه ، ص ٤٦ .

(١٣٥) ضاري الرشيد ، نبذة تاريخية ، ص ١٥٣ .

(١٣٦) المصدر نفسه .

(١٣٧) المصدر نفسه ، ص ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(١٣٨) المصدر نفسه ، ص ١٥٤ .

(١٣٩) ابن هذلول، ملوك آل سعود، ص ٥٦ .

(١٤٠) الرشيد، تاريخ الكويت، ص ١٦٤ .

(١٤١) المصدر نفسه .

(١٤٢) المصدر نفسه .

(١٤٣) المصدر نفسه .

(١٤٤) المصدر نفسه .

(١٤٥) الذكير، مطالع السعود، نسخة مكتبة الحرم، ورقة ٢٤٢ .

(١٤٦) الرشيد، تاريخ الكويت، ص ١٦٤ .

(١٤٧) العثيمين، تاريخ المملكة جـ٢، ص ٥٩ .

(١٤٨) خزعل تاريخ الكويت السياسي، جـ٢، ص ٤٨ .

(١٤٩) الزركلي، شبه الجزيرة، جـ١، ص ٧٦ .

(١٥٠) إبراهيم بن محمد القاضي، تاريخ مخطوط، تاريخ لا يزال مخطوطًا، نسخة بخط المؤرخ مقبل بن عبدالعزيز الذكير، (د.ت) مركز ابن صالح بعنيزة، ورقة ٤ (أ، ب)؛ العبدالمحسن، تذكرة أولى النهى والعرفان، جـ١، ص ص ٣١٨ - ٣٢٠ .

(١٥١) الذكير، مطالع السعود، نسخة مكتبة الحرم، ورقة ٢٤٢؛ القاضي، تاريخ مخطوط، ورقة ٥ (أ، ب) .

(١٥٢) المصدر نفسه، ورقة ٤ (أ، ب)؛ العبدالمحسن، تذكرة أولى النهى والعرفان، جـ١، ص ص ٣١٨ - ٣٢٠؛ الزركلي، شبه الجزيرة، جـ١، ص ١٢٠ .

(١٥٣) الرشيد، تاريخ الكويت، ص ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(١٥٤) الذكير مطالع السعود، نسخة مكتبة الحرم، ورقة ٢٤٢؛ القاضي، تاريخ مخطوط، ورقة ٥ (أ،ب).

(١٥٥) الريحاني، تاريخ نجد، ص ١١٩ .

(١٥٦) العبدالمحسن، تذكرة أولي النهى والعرفان، جـ١، ص ص ٣١٩ - ٣٢٤؛ الرشيد، تاريخ الكويت، ص ١٦٣؛ الذكير، مطالع السعود، نسخة مكتبة الحرم، ورقة ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(١٥٧) المصدر الأخير، ورقة ٢٤٢ .

(١٥٨) العبدالمحسن، تذكرة أولي النهى والعرفان، جـ١، ص ٣٢٠.

(١٥٩) المصدر نفسه، ص ٣٢٢ .

(١٦٠) الذكير، مطالع السعود، نسخة مكتبة الحرم، ورقة ٢٤٢ ؛ القاضي، تاريخ مخطوط، ورقة ٥ (أ، ب) .

(١٦١) ابن هذلول، تاريخ ملوك آل سعود، ص ٥٧ .

(١٦٢) PRO, FO, 78/5252
From : J. C. Gaskin, Assistant Political Agent at Bahrain,
To : C. A. Kemball, Officiating Political Resident in the Gulf, March 29, 1902;
PRO, Fo, 78/5250
From : J. C. Gaskin, Assistant Political Agnt at Bahrain,
To : The Politial Resident in the Gulf, February 23, 1902.

(١٦٣) الذكير، مطالع السعود، نسخة مكتبة الحرم، ورقة ٢٤٢ .

(١٦٤) العثيمين، تاريخ المملكة، جـ٢، ص٥٩ .

(١٦٥) الرشيد، تاريخ الكويت، ص ١٦٣ .

(١٦٦) ضاري الرشيد، نبذة تاريخية، ١٥٤ .

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية

إبراهيم، عبدالعزيز عبدالغني، *أمراء وغزاة، قصة الحدود والسيادة الاقليمية في الخليج (دراسة وثائقية)*، الطبعة الثالثة، بيروت : دار الساقي، ١٩٩٥.

البسام، عبدالله بن عبدالرحمن، *علماء نجد خلال ستة قرون*، ثلاثة أجزاء، مكة المكرمة : مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٣٩٨هـ .

البسام، عبدالله بن محمد، *تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق*، نسخة خطية، نقلها عن الأصل المحفوظ لدى ورثة المؤلف في عنيزة الأستاذ نور الدين شريبة عندما كان معلماً هناك عام ١٢٧٥هـ - ١٩٥٥م .

ابن بشر، عثمان بن عبدالله، *عنوان المجد في تاريخ نجد*، الطبعة الرابعة، جزءان، تحقيق الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبدالله آل الشيخ، الرياض: مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، الجزء الأول، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م الجزء الثاني، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الثنيان، محمد ثنيان، *«المؤرخ ابن بسام (١٢٧٠ - ١٣٤٦هـ) هويّته العلميّة وجذورها الأولى في ضوء نصوص جديدة أو منسيّة»* مجلة *جامعة الملك عبدالعزيز* (الآداب والعلوم الانسانية) المجلد الثاني، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

حمزة، فؤاد، *قلب جزيرة العرب*، الطبعة الثانية، الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

خزعل، حسين خلف الشيخ، *تاريخ الكويت السياسي*، ٤ أجزاء بيروت: ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.

دحلان، أحمد بن زيني، *خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النبي عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا بالتمام*، الطبعة الأولى، القاهرة: المطبعة الخيريّة المنشأة بحوش عطى بجمالية ١٣٠٥هـ.

الذكير، مقبل بن عبدالعزيز، *مطالع السعود في تاريخ نجد وآل سعود*، نسخت بأمر من الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام، ومحفوظة لدى مكتبة الحرم المكي الشريف تحت رقم ٩٩.

الذكير، مقبل بن عبدالعزيز، *مطالع السعود في تاريخ نجد وآل سعود* (الجزء المغطي لأحداث فترة الدولة السعودية الثانية، ١٢٣٨ - ١٣٠٩هـ/ ١٨٢٢ - ١٨٩٢م). تحقيق سعود التركي. (رسالة ماجستير لم تنشر، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبدالعزيز، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م)

الرشيد، ضاري بن فهيد، *نبذة تاريخية عن نجد أملاها الأمير ضاري بن فهيد الرشيد* (٠٠٠ - ١٣٣١هـ)، وكتبها *الأستاذ وديع البستاني*، (١٣٠٣ - ١٣٧٣هـ)، الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

الرشيد، عبدالعزيز، *تاريخ الكويت*، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٧٨م.
الريحاني، أمين. *تاريخ نجد الحديث وسيرة عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها*، الطبعة الأولى للأعمال العربية الكاملة (المجموعة)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠م.
الزركلي، خير الدين، *شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز*، أربعة أجزاء، الطبعة الثالثة، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٥.
السلمان، محمد عبدالله، *الأحوال السياسية في القصيم في عهد الدولة السعودية الثانية*، ١٢٣٨ - ١٣٠٩هـ/ ١٨٢٣ - ١٨٩١م، الطبعة الأولى: عنيزة: المطابع الوطنية للأوفست، ١٤٠٧ - ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧ - ١٩٨٨م.
عبدالرحيم، عبدالرحمن عبدالرحيم، *محمد علي وشبه الجزيرة العربية*، ١٢٣٤ - ١٢٥٦هـ/ ١٨١٩ - ١٨٤٠م، الطبعة الثانية، القاهرة: دار الكتاب الجامعي، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
آل عبدلقادر، محمد بن عبدالله بن عبدالمحسن، *تحفة المستفيد بتاريخ الإحساء في القديم والجديد*، جزءان، الطبعة الثانية، الرياض: مكتبة المعارف، الأحساء: مكتبة الأحساء الأهلية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
العبد المحسن، إبراهيم بن عبيد، *تذكرة أولي النهي والعرفان بأيام الله الواحد الديّان وذكر حوادث الزمان*، ٤ أجزاء، الطبعة الأولى، الرياض: مؤسسة النور للطباعة والتجليد، (د.ت).
العثيمين، عبدالله الصالح، *تاريخ المملكة العربية السعودية*، جزءان (جـ ١ الطبعة الخامسة، الرياض: مطابع وإعلانات الشريف، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.؛ (جـ٢ الطبعة الأولى، الرياض: العبيكان، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م).
العثيمين، عبدالله الصالح، *نشأة إمارة آل رشيد*، الطبعة الثانية، الرياض: مطابع الشريف، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
أبو عليه، عبدالفتاح حسن. *الدولة السعودية الثانية*، ١٢٥٦ - ١٣٠٩هـ/ ١٨٤٠ -

١٨٩١م، *الرياض : مطبعة المدينة ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .*

ابن عيسى ، إبراهيم بن صالح ، *تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان (من ٧٠٠هـ - ١٣٤٠هـ)* ، الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة ، والنشر ، (د.ت) .

ابن عيسى ، إبراهيم بن صالح ، *عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول القرن الرابع عشر* ، تحقيق الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، الرياض : طبع بالمطابع الوطنية الحديثة ، على نفقة وزارة المعارف (د.ت) .

العوني ، محمد العبدالله ، *من الشعر النجدي* ، *ديوان الشاعر محمد العبدالله العوني* ، جمعه ورتبه وفسّر بعض ألفاظه عبدالله عبدالله الخالد الحاتم ، الطبعة الأولى ، الكويت : ذات السلاسل ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

الفاخري ، محمد بن عمر ، *الأخبار النجديّة* ، تحقيق ، عبدالله بن يوسف الشبل ، الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية «لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر» (د.ت) .

الفرج ، خالد محمد ، *أحسن القصص أو سيرة جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل السعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها أيده الله ونصره (الملحمة الأولى)* . قدم للكتاب محمد علي الطاهر ، صاحب جريدة الشورى ، القاهرة : (د.ت) «لكنها أقدم وأول طبعة . نشرت قبل عام ١٣٥٠هـ» .

القاضي ، إبراهيم بن محمد ، *تاريخ القاضي* ، *تاريخ لا يزال مخطوطًا* ، نسخة بخط المؤرخ مقبل بن عبدالعزيز الذكير ، (د.ت) مركز إبن صالح بعنيزة .

***القاضي* ، عبدالعزيز بن محمد** ، *العنيزية «قصيدة تضم مختصر تاريخ عنيزة منذ تأسيسها حتى وقتنا الحاضر»* ، بغداد : مطبعة الصباح ، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م .

القاضي ، محمد بن عثمان ، *روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين* ، جزءان ، الطبعة الثانية ، القاهرة : مطبعة الحلبي ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

لوريمر ، ج. ج ، *دليل الخليج* القسم الجغرافي ، جـ١ ، ترجمة قسم الترجمة بمكتب أمير دولة قطر ، الدوحة : مطابع علي بن علي ، (د.ت) .

المارك ، فهد ، *من شيم العرب* ، الجزء الثالث ، الطبعة الرابعة ، الرياض : المكتبة الدولية ، دمشق : مؤسسة الخافقين ومكتاتها ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

المختار ، صلاح الدين ، *تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها* ، جزءان ، الطبعة الأولى ، بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

نخلة ، محمد عرابي ، *تاريخ الأحساء السياسي* (١٨١٨ - ١٩١٣)، الكويت : ذات السلاسل ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

ابن هذلول ، سعود ، *تاريخ ملوك آل سعود* ، الطبعة الأولى ، الرياض : مطابع الرياض ، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.

ثانيًا : المراجع الأجنبية

Bidwell , Robin. *The Affairs of Kuwait 1896-1905. (Foreign Office Confidential Print Correspondence Respecting Affairs at Kuwait).* Two Volumes, London : Frank Cas and Company , 1971 .

Najd Between Two Battles (1308-1318 A.H. / 1891-1901 A.D.)

MOHAMMED THENAYAN AL-THENAYAN
Associate Professor, Department of History,
Faculty of Arts and Humanities,
King Abdulaziz University, Jeddah, Saudi Arabia

ABSTRACT. Glorious periods of the history of Arabia, as well as gloomy ones are equally important to the researchers.

The battles of al-Mulayda, and as-Sarif marked a turning point in the history of the current events of that era. This is, of course, as far as their result is concerned. The battle of al-Mulayda took place in Jumada al-Akhira 1308 A.H. in al-Qasim, where the Amir Mohammed Ibn Rashid won, and the people of al-Qasim, under the leadership of the two Amirs of Buraydah, and Unayzah, were heavily defeated. Zamil al-Abdullah al-sulaym, the great and famous Amir of Unayzah was killed in the battlefield. The other one, the Amir of Buraydah, Hasan Ibn Muhna, was severely wounded, and fell in captivity, where he was transferred to Hayel, the Capital of Ibn Rashid.

The defeat of the two Amirs Zamil and Hasan, as a matter of fact, is considered to be a defeat to the last Imam of the Second Saudi State, Abdur-Rahman al-Faysal. This is, of course, understandable since these two Amirs, were the only powerful supporters and allies of that Imam, who can enable him to stand against Ibn Rashid. Thus, Abdur-Rahman had no alternative, but to abandon the Capital Riyadh . He Fled with his family, including Abdulaziz, to the east of Arabia. Imam Abdur-Rahman, eventually took exile in Kuwait.

The exile of Imam Abdur-Rahman, and the Amirs of al-Qasim too, lasted for about a decade of time. This study is concerned with the events of this period, not in exile, but in Najd.

At the end of this period, another battle happened. If al-Malayda battle marked the end of the Second Saudi State, the battle of As-Sarif may be considered the first step in the fall of Ibn Rashid's rule and the rise of Abdulaziz al-Faysul al-Su'ud and his modern State.

This decade of time, which extends between these two battles, may

be for its sensitivity or perhaps obscurity, is overlooked, and not much work has been written on it. This study is an attempt to shed some light on this critical period of time.

Beside other important and contemporary sources, this research, depends mainly upon unpublished historical manuscripts such as Matali as-Su'ud by Muqbil al-Dhukayr, Ibrahim al-Qadi's Manuscript of history and Tuhfat al-Mushtaq by Ibn Bassam.